



في النقد الروائي الجزائري بين المنهج والإيديولوجيا
تجربة مخلوف عامر النقدية أنموذجا

In the Algerian Novelistic Criticism between Methodology and Ideology,
Makhlouf Amar's Critical Experience as a Sample

عبد القادر ضيف الله

المركز الجامعي صالح أحمد ولاية النعامة (الجزائر)، a.difallah@cuniv-naama.dz

ملخص:

نسعى من خلال هذه المداخلة في النقد الروائي الجزائري بين المنهج والإيديولوجيا تجربة مخلوف عامر النقدية أنموذجا إلى تبين الاشتغال النقدي عند ناقد جزائري اشتغل منذ سبعينيات القرن الماضي إلى اليوم على الرواية الجزائرية من خلال كتاباته التي انتقلت من النقد الحر إلى النقد الأكاديمي المنهجي، وسنركز فيها على كتاب "الواقع والمشهد الأدبي.. نهاية قرن.. وبداية قرن"، محاولين تتبع الآلية النقدية التي تعامل بها الناقد مخلوف عامر في قراءته لمتن الرواية الجزائرية.

كلمات مفتاحية: النقد الروائي الجزائري؛ المنهج؛ الإيديولوجية.

Summary:

Through this contribution titled "In Algerian Novelistic Criticism Between Methodology and Ideology: Makhlouf Amar's Critical Experience as a Model", we seek to elucidate the critical engagement of an Algerian critic who has worked on Algerian novels since the seventies of the last century until today through his writings that have transitioned from free criticism to methodological academic criticism. We will focus on the book "Reality and the Literary Scene... End of a Century... and Beginning of a Century", trying to trace the critical mechanism by which the critic Makhlouf Amar dealt with the text of the Algerian novel.

Keywords: Algerian Novel Criticism; Methodology; Ideology

مقدمة: يعد الناقد مخلوف عامر من أبرز النقاد الجزائريين الذين اشتغلوا على الأدب الجزائري خاصة السردية منه منذ سبعينيات القرن الماضي إلى غاية اليوم من خلال العديد من الأعمال النقدية المنشورة بداية من كتاب (تطلعات إلى الغد)،

(مقالات في الثقافة والأدب) عن المؤسسة الوطنية للكتاب (1984)، ثم (تجارب صغيرة وقضايا كبيرة): المؤسسة الوطنية للكتاب (1984)، وكتاب (تدريس اللغة العربية وآدابها) (1997)، وكتاب (مظاهر التجديد في القصة القصيرة في الجزائر)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (1998)، (الرواية والتحويلات في الجزائر)، دمشق (2000). وصولاً إلى (توظيف التراث في الرواية الجزائرية) (2005)، و(متابعات في الأدب الجزائري) (2009)، و(الواقع والمشهد الأدبي) (2011)، وكتاب (قراءة جديدة في نصوص قديمة) (2012)، (الكتابة لحظة حياة) (2012)، و(الدولة الإسلامية واقع تاريخي أم نموذج وهمي)، مصر (2013).

الغالب في الدراسات النقدية التي أنجزها الناقد مخلوف عامر كان الجانب السردى، الرواية والقصة بالخصوص، لهذا جاء تركيزنا على كتاب مهم من كتبه النقدية هو كتاب (الواقع_ والمشهد الأدبي، نهاية قرن. بداية قرن) الصادر عن المكتبة الوطنية الجزائرية سنة (2011). درس فيه مخلوف عامر ما يقارب تسع روايات جزائرية مع جانب نظري جعله في قسمين: القسم الأول خصه لواقع النقد والأدب ولعلاقة الراهن الجزائري بترهين الخطاب. مع الحديث عن أول رواية جزائرية في تاريخ السرد الجزائري والعربي. القسم الثاني، جعله بعنوان الرواية الجزائرية بعيون مغربية، وقسمه إلى ثلاثة عناصر: العنصر الأول الرواية والتنظير، والثاني الرواية والتطبيق، ثم ثالثاً الهوية والتخييل. ثم قسّم ثالث مشاهد روائية نهاية قرن، بداية قرن.

ستكون مقاربتنا وصفية، نتبع فيها أولاً: راهن النقد الجزائري وعلاقته بالمدونة الروائية، ثم مقارنة الجانب الإيديولوجي على مستوى النظري والتطبيقي، ومدى تأثير المناهج الحديثة في هذه الممارسة النقدية عند مخلوف عامر عبر اختيار نماذج من كل قسم من الكتاب مركزين على الجانب التطبيقي في محاولة للإجابة عن أسئلة رأينا أنها تفيد صلب موضوع هذه الورقة البحثية.

الأسئلة تتعلق بسؤال الآلية النقدية وسؤال المنهج، والممارسة النقدية عند مخلوف عامر، هل استفاد الناقد مخلوف عامر في ممارسته النقدية من المناهج الحديثة كخلفية نظرية لقراءة النصوص، أم اعتمد الجانب الانطباعي والفكري أو ما يطلق عليه بالإيديولوجي في هذا الكتاب؟

2. راهن النقد الروائي الجزائري

لا يمكن الحديث عن النقد الروائي الجزائري دون الحديث عن المدونة السردية التي واكبها، فالمدونة السردية الجزائرية، شهدت تطورات سريعة، جعلتها تتجاوز طور النشأة

والتأصيل، منذ بروزها في الأشكال الفنية المعاصرة التي شهدت إقبالا كبيرا على الكتابة من لدن الكتّاب الجزائريين، ومن هذه الأشكال، الرواية على الخصوص المستمدة من منجز الرواية الغربية التي كان لها سبق النضج، وأصبحت المرجع، والنموذج الذي تستمد منه الكتابة السردية العربية وسائلها النظرية، وأدواتها الفنية، قبل أن تعود إلى التراث، وتبحث عن المغايرة والتأصيل، كما كان الحال مع المنجز الروائي الأول الذي عدّه النقد نصاً فنياً بمواصفات الرواية الغربية، وهو نص رواية (ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة.. لتتواصل بعده نصوص التأسيس، ثم التأصيل، والمغايرة مع ثمانينيات القرن الماضي إلى اليوم، حيث أصبح التجريب يشكل حقلاً بارزاً في الكتابة الروائية الجزائرية، ولأن النقد الروائي الجزائري كما أشرنا، واكب بصورة أو بأخرى، كلّ هذه التطورات التي خضع لها النص السردى، متأثراً بالحياة السياسية، والاجتماعية للإنسان الجزائري، ومحاولاً تقديم هذا السرد ووصفه، واستنباط أدواته الفنية، والجمالية "لأن السرد الجزائري كما هو المجتمع الجزائري، شهد من التطور السريع ما جعله يقفز قفزات نوعية جعلته يتجاوز وبشكل لافت طور النشأة والتأسيس ليتبوأ مكانة متقدمة من مرحلة النضج والاكتمال"¹.

فإذا كان الإبداع الجزائري قد تبوأ مكانة متقدمة من النضج، فإن الوعي والممارسة النقديين يظلان بحاجة أكثر إلى الارتقاء إليه، نظرياً وعملياً، رغم الجهود التي تواصلت منذ تشكله العلمي، وتراوحت بين مرحلة المضمون، والإيديولوجية، وبين مرحلة المناهج النقدية الشكلية، أي مرحلة البنيوية وما بعد البنيوية.

فالمرحلة الأولى المرتبطة بالنقد العلمي، يمكن الحديث فيها عن كل من النقد الأكاديمي الكلاسيكي مع عبد الله ركيبي، ومحمد مصايف، وواسيني الأعرج فيما بعد، ومخلوف عامر كنماذج اهتمت بالمضمون في الرواية الجزائرية. يقول مخلوف عامر متحدثاً عن تجربته النقدية: "ولا أزعّم أنها ترضيني فضلاً عن أن ترضي الآخرين، لأنني أدرك جيداً مدى افتقارها إلى الاستفادة من المناهج النقدية المعاصرة. ولعل هذا ما يفسر نزوع هذه المحاولات نحو التركيز على المضمون. لكن هذا الميل تبرره طبيعة الإنتاج الأدبي موضوع النقد. إذ مهما اجتهد الروائيون المعنيون في اصطناع تقنيات جمالية مستحدثة وسعيهم لخلق بنيات فنية جديدة، إلا أن المضمون هو الذي يكشف عن وجهه قبل أي مظهر من مظاهر الشكل"².

يشير كلام مخلوف عامر إلى فترة معينة، كتب فيها مقالات شكلت حصيلة للحركة الأدبية دامت سنوات طوال، حيث يبرر نزوع الروائيين إلى التركيز على إبراز موضوعات روايتهم رغم تفننهم في خلق بنيات فنية جديدة على مستوى الشكل، إلا أن المضمون هو الذي يكشف عن وجهه. بالإضافة إلى جهود الناقد مخلوف عامر ظهرت أيضا جهود أسماء نقدية أخرى حاولت أن تتجاوز نقد المضمون أو النقد الإيديولوجي، وتبنت المناهج النقدية المعاصرة، استجابة لتحولات تاريخية عرفها المجتمع الجزائري، لكنها بقيت تجتر هي الأخرى النظريات أكثر من الممارسة كما يقول مخلوف عامر: "ولقد ظهرت في الساحة الأدبية وجوه تحاول أن تتجاوز النقد التقليدي، إلا أن ما يغلب على هذه المحاولات أنها تنحو في معظم الأحيان منحى نظريا، يبدو فيه اطلاعا كبيرا على أحدث النظريات النقدية كالبنيوية مثلا، غير أن الصلة بالنظريات المعاصرة بقيت على صعيد التنظير، واجترار التنظير"³.

يعود مشكل عدم توافق الجانب التنظيري مع الممارسة النقدية كما أشار إليها مخلوف عامر إلى العديد من الأسباب مثلما يحدث مع النقد العربي بصفة عامة، وهذا ما يشير إليه ناقد آخر هو سعيد يقطين حينما يتحدث عن ثلاثة أسباب شكلت مسار النقد العربي وجعلته يعاني من عدم التوافق بين التنظير والممارسة وهي: الانقطاع، التفاوت والإلغاء.

1.2 الانقطاع، التفاوت الزمني، والإلغاء:

يقول سعيد يقطين موضحا هذه المشكلات التي اعترضت مسار النقد العربي: "وصفنا هذا المسار النقدي العربي بالانقطاع. وهذه هي السمة الجوهرية التي يمكن تسجيلها بصده. يبرز ذلك في كون هذه الصيرورة النقدية تتعدد إبدالاتها بتعدد المنعطفات الكبرى، والتحولات التاريخية التي عرفها المجتمع العربي. وعند كل منعطف جديد يجد الفكر الأدبي العربي نفسه في حاجة إلى خلفية معرفية غربية جديدة، تمكنه من العدة النظرية المناسبة، الشيء الذي يعني أن هذه الإبدالات لا تتحقق على أساس تطور طبيعي وداخلي للاتجاهات النقدية التي تمارس في الواقع الأدبي العربي، وتبعاً لتبدل مجالات الإبداع، وتبلور اتجاهات جديدة فيه.

أما مشكل التفاوت الزمني يعني أن هذه النظريات التي نتلقاها لا تتفاعل معها إلا بعد أن تكون قد استنفدت في محيطها الثقافي الذي ظهرت فيه، وبدأ يتم تجاوزها...

أما الإلغاء: كما أن هذا الانقطاع يتجلى بشكل واضح في قيام إبدال على إلغاء الإبدال السابق عليه، عبر القطيعة معه بشكل جذري بحيث لا يدع هذا مجالا للرجوع إليه للإفادة منه، وتطويره في فترة لاحقة⁴.

إذا كان مسار النقد الأدبي العربي في عمومته هو نفسه مسار النقد الروائي الجزائري بمشكلاته، وخلفياته المعرفية إلا أنَّ النقد الروائي الجزائري في مساره عبر التحولات التي مست المدونة السردية، قد أسس تراكما لا يمكن إنكاره، عبر أسماء نقدية برزت في نهاية القرن العشرين، نذكر منها: عبدالمالك مرتاض، صالح خرفي، مخلوف عامر، بخي بن عودة، سعيد بوطاجين... الخ. هذه الأسماء النقدية، وأسماء أخرى جاءت بعد العقد الأول من الألفية نذكر منها: الناقد أمين بحري، لونيس بن علي، جلولي بن سعد، عبد الحفيظ جلولي...، وقد تفاوتت ممارستهم النقدية كل حسب تبنيه واستيعابه للنظرية والمنهج، لهذا جاء اختيارنا على اسم من الأسماء البارزة في هذه الفترة وهو الناقد مخلوف عامر الذي يمثل نقدا برزت فيه إشكالية هذا البحث، وهي تداخل النقد الأيديولوجي مع النقد المنهجي في كتابه (الواقع- والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن) الصادر عن المكتبة الوطنية الجزائرية سنة (2011)، والذي سيكون مدار دراستنا من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية، ما مدى تعامل مخلوف عامر مع المناهج النقدية المعاصرة، هل استعمل النظرية النقدية الحديثة في ممارساته النقدية أم بقي مخلصا للنقد الاجتماعي بصورته الإيديولوجية التي أقر بها بنفسه في كتابه (تحولات الرواية الجزائرية)؟

للإجابة عن هذه الأسئلة سوف نبدأ بسؤال الهاجس الأيديولوجي

3. الإيديولوجي في كتاب (الواقع-والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن)

نقصد بالإيديولوجي مجموعة المعطيات التي تحيل على مضمون العمل الإبداعي، أو مجموعة الأفكار التي تشكل القناة الفكرية لدى الناقد، والمؤطرة لممارسته النقدية. لهذا سنرصدها في مستويين: - المستوى النظري، والمستوى التطبيقي.

1.3 على المستوى النظري: في الجانب النظري الذي خصه مخلوف عامر في

كتابه (الواقع-والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن)، والمقسم إلى قسمين، القسم الأول خصه لواقع النقد والأدب، ولعلاقة الراهن الجزائري بترهين الخطاب. مع الحديث عن أول رواية جزائرية في تاريخ السرد الجزائري والعربي. أما القسم الثاني، جعله بعنوان الرواية

الجزائرية بعيون مغربية، وقسمه إلى ثلاثة عناصر. الأول الرواية والتنظير، والثاني الرواية والتطبيق، ثم ثالثا الهوية والتخييل. قبل البدء في تحليل ما جاء في الجانب النظري في الكتاب سنحاول تحديد مصطلح الإيديولوجية.

كلمة إيديولوجيا تنقسم في اللغة اللاتينية إلى:

Idio التي يراد بها الفكرة. وLogos وتعني العلم، فيصبح المعنى الحرفي لكلمة إيديولوجيا "علم الأفكار".

سنجد أن أول من تحدث عن هذا المصطلح بهذه الصيغة هو الفيلسوف الفرنسي أنطوان ديستوت دي تراسي Antoine destuttde tracy، وذلك في كتابه الشهير (عناصر الأيديولوجيا) Éléments d'idéologi، عام 1801، ويعني بذلك بأن يكون المصطلح مقابلا للعلم الذي يدرس الأفكار أي إلزامية دراسة الأفكار وفق منهج علمي يتبع قوانين علمية مضبوطة تنطلق من الملاحظة، والتجربة لتصل إلى نتيجة محددة⁵.

جاء هذا المصطلح متأثرا بالفلسفة الواقعية خاصة المادية منها التي تقف ضد كل ما هو ميتافيزيقي، وتركز على الواقع. لهذا سنركز على المصطلح من المقاربة الماركسية التي نعتقد أن مخلوف عامر عكسها في رؤيته النقدية في هذا الكتاب.

في كتاب (الواقع والمشهد، نهاية قرن.. بداية قرن)، وفي قسمه الأول يضع مخلوف عامر مقدمة يناقش فيها الواقع والمشهد الروائي، والنقدي في الجزائر معلنا عن موقفه الأيديولوجي من خلال إيمانه بفكرة الواقع، وتأثيره على تحولات الإبداع على مستوى الأفكار، والمضامين، وهي الفكرة الأرسطية التي ترى أن الإبداع رصد للواقع، يقول في تقديمه لمسار تاريخ الأدب الجزائري من النصف الأول من القرن العشرين إلى فترة السبعينيات من القرن نفسه، مدينا أدب هذه الفترة: "ولا فرق في الجزائر - من حيث الجوهر - بين أدب النصف الأول من القرن العشرين، وبين فترة السبعينيات من القرن نفسه. ففي الحالين كان الأديب يطارد الفكرة أو المضمون وربما أعطي البعد الأيديولوجي مكان الصدارة على نحو صارخ"⁶.

مخلوف عامر في هذه الفكرة يدرك جيدا أن الأدب الذي يعكس، ويصور الواقع هو أدب أيديولوجي، ينتصر للأفكار والمضامين على حساب البنية الفنية للنص، قد نتفق معه في هذا لكن مخلوف عامر نفسه سيعود ويستدرك الأمر ليدافع عن فكرة المضمون في العنصر الذي خصصه بعنوان أدب المواقف. هنا سيدافع مخلوف عامر عن بعض

الاستثناءات في كتابات فترة السبعينيات، هذه الكتابات في الحقيقة هي لكتّاب انتسبوا للفكر الماركسي الشيوعي، وكانت كتاباتهم معارضة للنظام السائد، منهم: رشيد بوجدر، وطاهر وطار على الخصوص في روايته (اللاز)، و(الزلزال) بعد أن تلقوا انتقاداً من بعض النقاد، ووصفت كتاباتهم بالأيديولوجيا، يقول عامر منتقدا الناقد محمد مصايف حينما يصف هذه الاستثناءات بالأيديولوجيا:

"ولعل خير مثال على ذلك التصنيف الذي يعتمد " محمد مصايف " في كتابه (الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام) فبالنسبة له هناك الرواية الأيديولوجية، ويمثلها " الطاهر وطار " من خلال (اللاز) و(الزلزال) والرواية الهادفة ويمثل لها ب: (نهاية الأمل) لـ "عبد الحميد بن هدوقة".

والغربة في هذا التصنيف تبدو في عدة مستويات:

1. إن هذا التصنيف ذاته لا يخلو من موقف أيديولوجي ولو أن صاحبه ينكر ذلك بوعي أو بغير وعي.

2. عندما توصف رواية بأنها أيديولوجية، فهذا يوحي بأن بقية الروايات لا تتضمن بعدا أيديولوجيا، وهذا غير صحيح...⁷.

يدافع مخلوف عامر عن روايات بعينها أو عن استثناءات كما يقول عالجت الخطاب السياسي، وقدمت رؤية ماركسية من خلال الابداع مثلما فعلت رواية الطاهر وطار (اللاز) حينما عكست الواقعية الاشتراكية.

الأمر الثاني المتعلق بالأيديولوجي نجده في التقديم المكرر، والذي يعيده مخلوف عامر في كل كتبه تقريبا، فنجد مثلا في كتاب (تحولات في الرواية الجزائرية) الصادر في طبعته الأولى سنة 2000 عن اتحاد الكتاب بسوريا، وفي الطبعة الثانية في 2011 عن منشورات مديرية الثقافة لولاية معسكر، في المدخل يقول في معرض مناقشته لموضوع النقد الروائي وعلاقته بالأيديولوجية أو المضمون، يقول عن نفسه: "اقتناعا مني بحاجتنا الملحة إلى الممارسة في مجال النقد الأدبي، وبضرورة الإقلاع عن الروح الانتظارية كتبت هذه المحاولات المتواضعة للتعريف ببعض إنتاجنا الروائي. هي مساهمة متواضعة لضعف استفادتها من المناهج النقدية كالبنوية واللسنية مثلا، لأن مجهودا في هذا الاتجاه يقتضي تخصصا وتفرغا"⁸.

إذا كان مخلوف عامر يقر بضعف استفادته من المناهج النقدية المعاصرة، فهل سيطبق هذه القناعة على مستوى التطبيق أم سيحاول تجاوزها؟ هذا ما سنناقشه في هاجس الأيديولوجيا في الجانب التطبيقي..

2.3 الأيديولوجي في الجانب التطبيقي:

سنركز في هذا العنصر على الممارسة التطبيقية على الروايات الجزائرية المدروسة في القسم الثالث المعنون بـ "مشاهد روائية نهاية قرن، وبداية قرن".

أولاً: رواية (الجنّازة) لرشيد بوجدر (انهزام الموت، انتصار الحياة).
في حديثه عن الشخصيات يقول: "السارد الحقيقي هو "سارة" في الغالب، وقد تكون "الأم"، وقد يكون "سليم". ولكن السارد الحقيقي - في كل الحالات هو "بوجدر" الذي يملك بكثير من الفطنة والسلاسة من موقع إلى آخر، وينقلك من جو إلى جو لتعاشر شخصيات قد تبدو لديك مألوفة، وغير مألوفة في آن. وما قيمة الأديب إذا لم يكن قادراً على أن يجعل الأشياء المألوفة تبدو وكأنها غير مألوفة"⁹.

- ثانياً: رواية (يصحو الحرير) لأمين الزاوي حكاية امرأة، حكاية وطن).

يقودنا "أمين الزاوي" عبر خمس عشرة محطة قصصية تتابع كالتالي: "اختار لها أبوها اسماً جديداً "حروف الزين". تسافر إلى تركيا حيث تلتقي بأنطونيو ليفترقا بلا أثر، سوى أنها كانت تهوى إطلاق الزراير على خلاف أولئك الذين يذهبون إلى تركيا لممارسة التهريب. تتذكر علاقتها بزواج أختها يعقوب، وتبدو منشغلة بالمصحف، وبالبحث عن علاقة محمد (ص) بنسائه"¹⁰.

نكتفي بهذين المثالين لتوضيح الهاجس الأيديولوجي الذي طغى على الممارسة النقدية عند مخلوف عامر في قراءته للمتن الروائي الجزائري.

في رواية رشيد بوجدر (الجنّازة) (انهزام الموت، انتصار الحياة). يبدو من هذا العنوان أن مخلوف عامر يطارد المضمون العام للرواية أكثر مما يطارد الشكل، وهذه الملاحظة تنسحب على كل قراءاته الأخرى في الكتاب. وعليه فالقراءة التي تتجه نحو المضمون لاستجلاء الدلالة العامة للمتن هي قراءة أيديولوجية في المقام الأول يبني عليها مخلوف عامر عملياته النقدية، فحينما يتحدث عن الشخصيات في رواية (الجنّازة) نجده يخرج من النص إلى خارج النص، محاولاً استدعاء القارئ بصورة يحاول فيها تعيين السارد من بين الشخصيات التي تسرد الحكاية، ليصل في النهاية إلى الكاتب رشيد بوجدر، مثنياً

على أسلوبه في الوقت نفسه. يقول في ذلك: "بوجدة" الذي يحملك بكثير من الفطنة والسلاسة من موقع إلى آخر، وينقلك من جو إلى جو لتعاشر شخصيات قد تبدو لديك مألوفة وغير مألوفة في آن. وما قيمة الأديب إذا لم يكن قادرا على أن يجعل الأشياء المألوفة تبدو وكأنها غير مألوفة"، هذا الثناء على أسلوب الكاتب سينتهي في النهاية بنصيحة يقدمها عن قيمة الأديب بمعنى عن صورته، وقيمة ما يكتبه، وهذا حكم قيمي يطغى على النقد عند مخلوف عامر، يظهر ذلك في قوله: "وما قيمة الأديب إذا لم يكن قادرا على أن يجعل الأشياء المألوفة تبدو وكأنها غير مألوفة".

في رواية (يصحو الحرير) لأمين الزاوي أيضا يستمر مخلوف عامر في تقديم نقد المضمون عبر تلخيصه للفصول الخمسة عشر التي يقدم بها الروائي بطله روايته وهي شخصية حروف الزين.

هذا الاتجاه نحو المضمون سينتهي هو الآخر في النهاية بحكم قيمي، حيث يقوم الناقد بإثبات أن النص الروائي عند أمين الزاوي، قد تجاوز الخطاب الأيديولوجي الذي كان عليه في فترة السبعينيات، في قوله: " وهي أيضا نقلة نوعية في الكتابة الروائية بالجزائر بالقياس إلى فترة السبعينيات من حيث انتقالها من الخطاب الأيديولوجي/ السياسي الصارخ - الذي يتحدث عن الآخر بوصفات مخططة مسبقا تختفي فيها الذاتية لتحل محلها النبوة الشعارية التقريرية- إلى التمحور حول الذات المبدعة المشعة على المحيط"¹¹.

إذا كان الهاجس الأيديولوجي هو الغالب في الممارسة النقدية عند مخلوف عامر، إذن كيف يمكن الحديث عن المنهج، وتمثله في الممارسة النقدية عند هذا الأخير؟

4. المنهج بين التمثل والممارسة

1.4. تمثيل المنهج على المستوى النظري

يحرص مخلوف عامر في هذا الكتاب على قراءة مختلفة عن قراءاته السابقة لمتن الرواية الجزائرية باستحضار العديد من المصطلحات التي تحيل على المناهج الحديثة والمعاصرة خاصة المتعلقة منها بمعطيات المنهج البنوي، وبتعدد نظرياته، وما بعد البنوية، بالتركيز أكثر على التأويل والقارئ.

وعليه فالجانب النظري عند مخلوف عامر لا يكاد يتغير، فنجده يعود إلى طريقته السابقة التي يقدم فيها العديد من المسائل، والإشكالات التي تطرح على مستوى ساحة

الإبداع الجزائري ويناقدشها، أو ما تعلق بعلاقة الإبداع بالواقع. وهذا ما نسلجه في العناصر المدرجة في القسم الأول النظري حيث يعالج المسائل التالية:

- الواقع والمشهد الأدبي: يقدم فيه مخلوف عامر مسردا عن تاريخ الأدب الجزائري ونشأة الكتابة الأدبية، ومراحل تطورها، واصفا كل مرحلة وعلاقتها بالتحويلات الاجتماعية والسياسية، ثم يناقش أزمة الحركة النقدية، وضعف متابعتها للنصوص الأدبية، كما يناقش أيضا أزمة الثقافة، وعجز المؤسسات الثقافية عن تحريك الفعل الثقافي في المدن الجزائرية، ويقترح حلولاً لذلك، ويناقش أيضا أزمة المنظومة التربوية وعلاقتها بالنظام السياسي، وبعدها يعود للتركيز على ما هو أساسي في الكتاب من خلال ثلاثة عناصر هي:

- العنصر الأول: الواقع وواقع الأدب والنقد:

يتحدث فيه عن:

1. هيمنة القراءة السياقية، حيث يتحدث عن (الثورة الروسية، أدب المواقف، حركات التحرر، دور التعليم).

2 - الانهيار بالنسق: يقدم في هذا العنصر مجموعة الأمثلة عن الممارسة النقدية النسقية التطبيقية ويناقدشها.

3.. القراءة والمقروئية: يتحدث عنها من خلال استعراض مفهوم القراءة الحديثة، وأزمة المقروئية في الجزائر خاصة في المدرسة، والجامعة محاولا تقديم حلول لذلك خاصة ما تعلق بفهم الخطاب الأدبي، وفهم أدبيته، لهذا يقدم تعريفا لعبد السلام المسدي، يعرف فيه معنى غموض الخطاب الأدبي، واختلافه عن الخطاب العادي، يقول: "إن الخطاب الألسني العادي هو خطاب شفاف يرى من خلاله معناه، ولا نكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بلوري لا يقوم حاجزا أمام أشعة البصر، بينما يتميز عنه الخطاب الأدبي بكونه ثخنا غير شفاف يستوقف هو نفسه قبل أن يُمكنك من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلوري طلي صورا ونقوشا وألوانا قصداً أشعة البصر أن تتجاوزته"¹².

يحاول عامر عبر العنصر الأول الخاص بـ "الواقع وواقع الأدب والنقد" أن يكون منسجما مع موضوع الكتاب الذي يعالج الواقع والمشهد الأدبي، لهذا يتوسع في مناقشة العديد من المسائل إلى أن يتجاوز أحيانا ما يربط الموضوع بالفكرة الأساسية للكتاب خاصة وأن فكرة الكتاب تتعلق بالمشهد الأدبي.

صرح المؤلف في المقدمة أن المشهد الأدبي الجزائري يشهد غيابا للنقد، وبأنه حريص منذ سبعينيات القرن الماضي على متابعة المدونة الأدبية الجزائرية خاصة ما تعلق منها بالقصة والرواية، لكننا بعد هذا التصريح سنجد أن الكتاب قد اتسع لموضوعات أخرى غير أدبية حاول فيها أن يناقش الأزمة الثقافية، وأزمة المنظومة التربوية، وليس الأدبية فقط. وهذا يدخل حسب اعتقادنا في العموميات التي تشغل بال المؤلف، ويتخذها موضوعات مهمة في مجمل دراساته لإعادة طرح النقاش حولها، وحول الأفكار والمضامين والقضايا الكبرى التي تهم المجتمع في علاقته بالأدب.

أما في العنصر الثاني المعنون بـ "النقد الأدبي من هيمنة السياق إلى انهيار بالنسق": يحاول مخلوف عامر أن يناقش الدراسات النقدية التي تصدت للقصة والرواية الجزائرية، والتي تجاوزت النقد الكلاسيكي أو الأيديولوجي في اهتمامه بالمضمون. وتحت عنوان: "انهيار بالنسق"، يقول عامر: "غير أن ما يشوب هذه الممارسات عندنا أنها تُراكم المصطلحات بلا وعي بجذورها الفلسفية، وكثيرا ما تستحيل أشبه بألعاب بهلوانية مولعة برسم الجداول وتثبيت الإحصاءات وتُسقطها على عمل لا صلة له بالتصوير الفني إلا بالتسمية الخارجية. وكان من الآثار السلبية لذلك أن طلبتنا لم يعودوا يفهمون لأن أستاذهم غير مفهوم أصلا، بل لأنه صار معسرا فمُنقرا. وأجد أن "د عبد المالك مرتاض" من أشد المولعين بهذا الاتجاه"¹³.

ينتقد مخلوف عامر الانهيار بمقولة النسق، وما ينجر عنها من ممارسة نقدية تجريدية تحيل النص الأدبي إلى جداول، وإحصاءات تسقط العملية النقدية في دائرة الغموض، كما تفعل البنيوية في تجربة الناقد عبد المالك مرتاض في كتابه عن القصة، حيث ينتقد تصنيفه للقصة حسب المضمون إلى قصة ذات مضمون اجتماعي، وأخرى ذات مضمون وطني، ويقول، إن هذا التصنيف غير مقنع: "إلا أن هذا التصنيف المنهجي الذي يميز فيه المؤلف بين الاجتماعي والوطني يبدو غير مقنع"¹⁴.

انتقادات مخلوف عامر حتى وهي تبحث عن المنهج فهي الأخرى غير مقنعة فنجدها دائما ترتبط بالمضمون، مستبعدا فيها الحديث عن المصطلحات الحديثة حيث لا يأتي على ذكر المنهج الحديث الذي استعمله عبد المالك مرتاض في دراسته للقصة، ولا على ذكر الجهاز المفاهيمي المستعمل في الممارسة النقدية، بل يكفي بانتقاد التصنيف وعملية

الإحصاء التي أغرقت النص في الغموض، مرجعاً سبب ذلك إلى عدم تمثيل واستيعاب الجهاز المفاهيمي للمنهج، وهذه من العموميات التي يسقط فيها مخلوف عامر.

في العنصر الثاني من القسم الأول والخاص بـ "الراهن الجزائري وترهين الخطاب" يطرح مخلوف عامر مصطلح الخطاب كما هو مبين في العنوان، يَعدّه مصطلحاً من مصطلحات المنهج البنيوي، كما يقوم بدراسة العتبات النصية محاولاً التأسيس لقراءة تتبع المنهج في العديد من الروايات التي تجاوزت معالجة الواقع في صورته الأيديولوجية، وفي استحضار حرب التحرير أيضاً مثل كتابات أحلام مستغانمي، والروائي عبد الوهاب بن منصور.

في القسم الثاني: الرواية بعيون مغربية في عنصر التنظير.

في هذا القسم، وفي محاولة من مخلوف عامر للبحث عن الانسجام من حيث القبول بالمنهج كأداة قرائية للنصوص، باستحضار الدراسات التي ترصد المسار التاريخي للرواية المغربية والرواية الجزائرية على الخصوص، وفي الوقت ذاته تستحضر هي الأخرى معطيات المناهج الحديثة مثل البنيوية، والبنيوية التكوينية مثلما جاء في دراسة محمد برادة المعنونة بـ (الرواية في المغرب العربي من أسئلة التكون إلى مغامرة التجريب)، من خلال تحول الرواية المغربية من "رصد الواقع" إلى التجريب والبحث عن أشكال ملائمة للتبدلات المجتمعية، والسلوكية، والبيئية، احتل تذويت الكتابة مكانة أساسية. لأن الروائيين أصبحوا معنيين بتقديم رؤيتهم للعالم وتخصيص لغتهم، وهذا ما أسهم في تغيير الخطاب الروائي من خطاب استنساخي، محاك، إلى خطاب يتفاعل مع الصراعات والتناقضات ويتعارض مع الأحكام والتقييمات المطلقة¹⁵.

تظهر في هذه المقولة التي يقدمها مخلوف عامر المصطلحات التالية:

- رؤية العالم.

- الخطاب.

في رؤية أخرى وبحثاً عن الانسجام يستحضر مخلوف عامر المناهج الحديثة عبر الممارسة النقدية لناقد مغربي آخر هو عبد الحميد عقار الذي يقول عن الرواية الجزائرية: "وتنهض الواقعية الملحمية بوصفها الاتجاه العام الذي يؤطر رواية "اللاز" فخصائصها الفنية ومقومات البناء فيها مؤسسة على جمالية المحتمل والتمثيل أين يقع المائل الافتراضي بين العالم اليومي للقارئ، وعالم المتخيل، ويهيمن السارد العليم الذي يضطلع بوظيفتي السرد والتأويل..."¹⁶.

في هذه المقالة لعبد الحميد عقار، وفي معرض حديثه عن خصائص رواية "اللاز" لظاهر وطار نجد المصطلحات التالية: (البناء، المتخيل، السارد العليم، السرد، التأويل). كلها مصطلحات حديثة يستحضرها مخلوف عامر باستحضار هذه الدراسات الحديثة لنقاد مغاربة لهم توجه نقدي مؤسس على معطيات المناهج الحديثة، والمعاصرة، وهي في الغالب مبنية على البنيوية، وعلى ما بعد البنيوية، أي النظريات التي لها جهاز مفاهيمي دقيق يحيل على النسق. نذكر من بين هذه المصطلحات بالإضافة إلى التي سبق ذكرها واستحضرها النقاد المغاربة في الدراسات التطبيقية: (النص، البنية، الخطاب، التأويل والسارد، ورؤية العالم)، التي تشير إلى مقارنة لوسيان غولدمان أو توجه البنيوية التكوينية.

إذا كان مخلوف عامر قد جمع هذه المقاربات المغربية التي قاربت الرواية الجزائرية بصورة حديثة تجاوزت الأيديولوجيا، والإحصاء والتجريد، إلى النظريات التي جمعت بين النسق والسياق في قراءة النصوص، فالسؤال الذي يحق طرحه الآن، هو كيف تمثل مخلوف عامر هذه المرجعيات الحديثة التي جاءت بعد الاتجاه الواقعي أو الأيديولوجي أو كيف تمثل هذه الدراسات التي جاء بها في هذا الكتاب كنماذج حية عن تعامل النقد المغربي مع النصوص الروائية الجزائرية؟

سنحاول في العنصر الآتي الإجابة عن هذه الأسئلة.

2.4. تمثل المنهج على مستوى الممارسة.

كما ذكرنا سابقا في مجال التطبيق على الرواية الجزائرية يقوم مخلوف عامر بدراسة تسعة أعمال روائية، وهذا في القسم الأخير المعنون بـ: مشاهد روائية نهاية قرن، وبداية قرن. في قراءته للرواية الأولى (جنازة) لرشيد بوجدر، وفي معرض حديثه عن الحوار الداخلي (المنولوج) يستحضر مخلوف عامر المصطلحات التالية: (السارد، الراوي، المروي له، المتلقي، القارئ، الفضاء النصي، المناص). كما سيقوم بقراءة العتبات النصية، خاصة العنوان في رواية (يصحو الحرير) لأمين الزاوي، وتطبيق المربع السيميائي مثلما فعل مع رواية (بوح الرجل القادم من الظلام) لإبراهيم سعدي، وعن المكان ودلالته. يقول مخلوف عامر عن رؤيته المنهجية في معرض حديثه عن دلالة الجنس في الرواية:

"وفي رواية (الجنازة) أو غيرها يمكن أن توحى القراءة الظاهرية للنص بشيء من هذا المعنى لولا أن القراءة الظاهرية تبقى حبيسة الدائرة التقليدية التي تعودت على بنية روائية

سهلة من جهة، وتجرجر دوماً نقدها الأخلاقي الذي كثيراً ما جنى على أدبية الأدب من جهة أخرى¹⁷.

يتحدث أيضاً عن المدلول المزدوج الذي يثيره الحوار الداخلي في الرواية حيث يقول: "عودنا بوجدة في كتاباته على استخدام المونولوج الذي يشكل تموجات لا تأبه بالنقاط والفواصل ولا بعلامات الترقيم مما يفضي إلى دالتين على الأقل: فأما الأولى، فهي توحد الكاتب مع الشخصية التي على لسانها يجري الحوار، توحد أشبه بحالة صوفية تنغمس في الذات الأخرى، تتجاوز مجرد الإخبار الذي يوحى - دوماً - بوجود انفصال ما بين داخل وخارج. في هذه الحالة لا يبقى الحديث أو الوصف ملفوفاً بأجواء برانية، بل إن الجوانية هي التي تحتل المركز لتتوزع على أطراف ليست سوى امتداد لتلك الجوانية. وهنا . فقط يمكن الحديث عن الصدق في التعاطي مع الكتابة إذا لم يؤخذ الصدق بمعناه الأخلاقي اللادبي. وأما الثانية فتتعلق بموقف المتلقي"¹⁸.

إن كان مخلوف عامر في حديثه عن دلالة الحوار عبر التأويل، ويثير الانتباه إلى بنية النص عند بوجدة دون أن يطرح مصطلح البنية صراحة، لكنه أشار لها ضمناً من خلال اشارته لشكل الحوار، وقد عبر عنه بغياب الفواصل والنقاط التي تحيل على توحد الكاتب مع الشخصية التي على لسانها يجري الحوار، هذا الأمر يحيل على البنية السطحية في مقابل البنية العميقة، وأن مخلوف عامر يتعامل مع النص بنظرة نسقية ستظهر جلية أكثر في إشارته الأخرى إلى وجود داخل وخارج بالنسبة للخبر في الحوار، أو ما اصطلح عليه بأجواء برانية في مقابل أجواء جوانية. لكن مخلوف عامر سينتقل من البحث عن دلالة بنية الحوار إلى الحديث عن المؤلف أو الكاتب بوجدة في مقابل القارئ المتلقي، هنا نحن أمام نظرية القراءة أو التلقي حتى إن لم يشر إليها صراحة، كما جاء في مقولة إيزر عن القارئ الضمني، وبنية النص، ثم في النهاية يتحدث عن الصدق، وهذا الأخير مصطلح يشير إلى سياق النص أكثر ما يشير إلى النسق، لأن الكاتب لا وجود له في النظرية الحديثة إلا إن كان الحديث عنه في إطار الحديث عن المؤلف الضمني الذي يشير إليه أمبيرتو إيكو، وتشير إليه نظرية التلقي كما سبق الذكر.

نستشف أيضاً من قراءة مخلوف عامر لرواية (الجنازة)، خاصة على مستوى المنهج والرؤية، أن عامر يجمع بين كل من الأيدولوجي والمعرفي، بمعنى بين القناعة الفكرية أو الأيدولوجية، والجانب المعرفي العلمي في الوقت نفسه، متأثراً في ذلك بالجابري في قراءته

للتراث، كما يشير هو إلى ذلك صراحة في حديثه عما يثيره الحوار في القارئ: " فالحوار بهذا المعنى لابد أن يستدرج القارئ إلى أن يخوض تجربة أدبية صوفية بأن ينغمس - بدوره - في المكتوب لينسحب - بعد ذلك - بمسافة تسمح له بأن يحرك العمل الأدبي في رحابة ذهنية"¹⁹. وهذا ما يقوله الجابري في منهجه حينما يتحدث عن قراءة التراث قراءة علمية يلتزم فيها الباحث بأكبر قدر من الموضوعية، وأكبر قدر من العلمية، بجعل التراث معاصرا لنفسه، الشيء الذي يقتضي فصله عنا، وبالمقابل نعني ب "المعقولية" جعله معاصر لنا أي إعادة وصله بنا"²⁰.

إن كان عامر يتحرك بالمنهج الجابري في القراءة، بمعنى النظر العام للنص واستبعاد التفاصيل التي قد لا تنسجم مع الرؤية مثلما يفعل ذلك الجابري الذي يتحرك بعقل مركب كما يقول عنه الأستاذ د طيب بوعزة " أن الجابري يشتغل بعقل تركيبي نسقي وذلك مكن قوته وضعفه في ذات الوقت، فقوته في اختصار الألوان المعرفية، والصورورة التاريخية لتراثنا الثقافي في إطار خط عام تحكمه مفاهيم مركزية أما الضعف فيمكن في إهمال رؤى فكرية لا تخدم استحضارها بقاء الانسجام وانتظام النسق؛ لأن إدخالها سيؤدي إلى خلخلة الأحكام التي أحيانا تبدو جاهزة عند الرجل، ولكنه في سبيل إبقائها باستبعاد كل ما لا ينسجم مع تثبيتها"²¹.

ربما هذا ما يتقاطع فيه مخلوف عامر في قراءته للنصوص الأدبية مع الجابري، وهو محاولة التركيب، لهذا يمكن أن نستخلص في نهاية هذه الورقة البحثية النتائج التالية:

4. النتائج:

- التركيز على المضمون سواء في الجانب النظري أو التطبيقي عبر مناقشة الأفكار وتلخيص النصوص الروائية مما جعل الممارسة النقدية عند الناقد مخلوف عامر تأخذ طابعا أيديولوجيا أكثر من أي طابع آخر.
- الأحكام الجاهزة أو التي تبدو كذلك خاصة نحو الأعمال التي تخالف اعتقاد وفكر المؤلف.
- اعتماد الناقد مخلوف عامر على التركيب، أي جمع العديد من المفاهيم النظرية التي قد تكون أحيانا متباعدة خدمة لرؤيته مع الإبقاء على النهج نفسه وهو قراءة دلالة مضمون العمل الأدبي أو تفسيره وإصدار حكم قيمي في النهاية.
- التركيب الذي نتحدث عنه يتجلى أيضا في المفاهيم النظرية التي يستحضرها المؤلف من العديد من النظريات الحديثة مثل مربع غريماس، مصطلح السرد الذي يعد تقنية معمارية

جاءت بها النظريات الحديثة لدراسة السرد، ثم يستحضر السارد العليم ليتحدث عن الشخصية، والذي يستعمل كتنقية في الرواية الكلاسيكية، كما يستحضر الراوي، ويدرس العتبات النصية، والقارئ.

رغم استحضاره لكل هذه المصطلحات والمفاهيم إلا أن عامر لا يشير إلى أي نظرية ولا إلى أي مفكر غربي من الذين صنعوا هذه المصطلحات.

وعليه فمخلوف عامر في قراءاته النقدية يجمع بين المنهج والأيدولوجية سواء باقتراجه من المفاهيم المتعلقة بالمنهج النسقية أو السياقية ليبني عليها أطره النقدية، حيث تحكمه الأفكار الأيدولوجية التي تراعي سياق النصوص وتأثيرها في القارئ والمجتمع، وربما هذا ما جعل من مخلوف عامر يحافظ على نفس المسار النقدي ويعمقه طيلة ثلاثة عقود من الاشتغال على النصوص الجزائرية.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- د زروقي عبد القادر، النقد الروائي الجزائري المنجز والخيارات المنهجية مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية (6) المجلد (10) أبريل 2015، ص 140
- 2- د مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات مديرية الثقافة لولاية معسكر. دار الاديب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر.. ص 5
3. نفس المرجع، ص 7
4. ينظر د. سعيد يقطين، د فيصل دراج، أفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، 2003، ط 1، ص 30
5. ينظر أ/ النص - نحو مقارنة مفاهيمية، مجلة الأثر ع 18، جوان 2013، ص 138
6. د مخلوف عامر، "الواقع_ والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن"، المكتبة الوطنية الجزائرية 2011، ص 23
7. نفس المرجع ص 22
8. د مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 18.
9. د مخلوف عامر، "الواقع_ والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن"، ص 168.
10. نفس المرجع، ص 180
11. نفس المرجع ص 183.
12. نفس المرجع"، ص 38
13. نفس المرجع ص 29
14. نفس المرجع، ص 30
15. نفس المرجع، ص 95، 96
16. نفس المرجع، ص 109
17. نفس المرجع، ص 174

18. نفس المرجع "، ص 167

19. نفس المرجع ص 168

20 - ينظر د محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (دراسات...ومناقشات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ط3، ص 47

21- الحسن السرات. منهج الجابري في النظر إلى التراث بين النجاح والقصور، موقع <https://www.aljazeera.net/news/cultureandar/> يوم 2019/12/30 على الساعة 6:34

6- قائمة مراجع البحث:

✓ كتب:

1. د. مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات مديرية الثقافة لولاية معسكر. دار الاديب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر..

2. د. مخلوف عامر، (الواقع_ والمشهد الأدبي، نهاية قرن.. بداية قرن)، المكتبة الوطنية الجزائرية سنة 2011

3. د محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (دراسات...ومناقشات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ط3

4. د. سعيد يقطين، د فيصل دراج، أفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، 2003، ط1

✓ مقالات:

5. د عبد القادر زروقي، النقد الروائي الجزائري المنجز والخيارات المنهجية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع(6) المجلد (10)، أبريل 2015،

6. أسعيد عموري، الأيديولوجيا / الخطاب/ النص – نحو مقارنة مفاهيمية، مجلة الأثر، ع 18، جوان 2013،

✓ مواقعاً للأنترنت:

7. الحسن السرات. منهج الجابري في النظر إلى التراث بين النجاح والقصور، موقع <https://www.aljazeera.net/news/cultureandar/> يوم 2019/12/30